﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٨٠﴾ [الحجر: 80]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التّذكير بكفر أصحاب الحجر، بعد هلاك أصحاب الأيكة بظلمهم

لمّا كان ربما يقول قائل: إنَّه لو كان لأصحاب الأيكة بيوتٌ متقنةٌ لَمنعتهم منَ العذاب؟ عطفَ عليهم مَنْ هم على طريقٍ أخرى من متاجرِهم إلى الشّام، وكانوا قد طالَ اغترارُهم بالأملِ حتَّى اتَّخذوا الجبالَ بيوتًا، وكانت آيتُهم في غايةِ الوضوحِ فكذَّبوا بها تحقيقًا؛ لأنَّ المتعنِّتينَ لو رأوا كلَّ آيةٍ لقالوا: إنِّما سُكِّرتْ أبصارُنا فجاءت هذه الآية عقب ما تقدَّمها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحِجۡرِ﴾: أصلُ (حجر): أصْلٌ واحدٌ مُطَّرِدٌ، وهو المَنْعُ والإحاطَةُ على الشَّيءِ، فالحَجْرُ حَجْرُ الإنسانِ، يُقالُ: حَجَرَ الحاكِمُ على السَّفيهِ حَجْرًا؛ وذلك مَنْعُهُ إيّاهُ مِنَ التَّصرُّفِ في مالِه؛ والعَقْلُ يُسَمَّى حِجْرًا لأنَّهُ يَمنَعُ مِنْ إتْيانِ ما لا يَنْبَغي[2]، والحَجَرُ معروفٌ، وأحْسِبُ أنَّ البابَ كُلَّهُ محمولٌ عليهِ ومأْخوذٌ منهُ؛ لشدَّتهِ وصلابَتِه، الحِجْرُ حِجْرُ الكَعْبَةِ، وهو ما حَواهُ الحَطيمُ المُدارُ بِالبَيْتِ جانبَ الشَّمالِ؛ وكُلُّ ما حَجَرْتَهُ مِنْ حائطٍ، فهوَ حِجْرٌ[3]، والمقصود بالحِجْرِ في الآيةِ: المكانُ المَحْجورُ، أي: المَمنوعُ مِنَ النّاسِ بِسَبَبِ اخْتِصاصٍ بِهِ، أوِ اشْتُقَّ مِنَ الحِجارةِ لأنَّهم كانوا يَنْحِتونَ بُيوتَهُم في صَخْرِ الجَبَلِ نَحْتًا مُحكمًا[4]، والمرادُ به: ديارُ ثَمودَ ناحيةَ الشّامِ عِنْدَ وادي القُرَى، وهم قومُ صالِحٍ عليه السلام[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/80.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حجر).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهري، الصحاح: (حجر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/72 - 73.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حجر).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ذكر أصحاب الحجر وتكذيبهم، ومَن كذّب رسولًا فقد كذب الرُّسُل جميعًا

يُخبر الله تعالى عن أهل الحجر، وهم قوم صالح، الَّذين كانوا يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز، أنَّهم كذَّبوا المرسلين، أي: كذَّبوا صالحًا، ومَن كذَّب رسولًا فقد كذَّب سائر الرُّسل؛ لاتِّفاق دعوتهم، وليس تكذيب بعضهم لشخصه بل لما جاء به منَ الحقِّ الَّذي اشترك جميع الرُّسل بالإتيان به، والتي لا تختلف والذي لا يختلف باختلاف الأمم والأزمان[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة العطف بالواو في الآية:

تماثل العذاب على الأمم، لتماثل التّكذيب والظّلم

جاءت الآية بطريق الوصل لمناسبة المعنى، فقد كذَّب كلُّ قوم منَ المذكورين في السّورة رسلَهم، وكان نوع العذاب الذي سُلِّطَ عليهم متماثلًا، وهو عذاب الصّيحة والرّجفة والصّاعقة، وكان أهل مكّة يشاهدون ديارَ هذه الأمم الثلاث، لأنَّها كانت في طريقِ أسفارِهم، فجاءت الآية بالوصل؛ لتكون على التّتميم والإدماج مع ما قبلَها، بختم القصص في هذه السورة بقصة أصحابِ الحجر، الذين كانَتْ منازلُهم وما نزلَ بهم معروفًا عند العربِ، فذكرَهم ليعتبِرَ المخاطبون بهم.

فائدة تتابع التّوكيد، في قولِه ﴿وَلَقَدۡ﴾:

مَنْ كانَ تكذيبُه متأصِّلًا، لم تنفعه الآياتُ، ولا العظات

أفاد مجيء الكلام بتوكيدين: باللّام و(قَدْ) تقريرَ تكذيب أصحابِ الحجرِ لرسولِهم صالح ﷺ، والإشعارَ بأنَّهم كانوا مصرّين على التّكذيب، وأنَّه كانَ متأصِّلًا فيهم، وأنَّ الآياتِ لم تنفع في قلعِهم عن التّكذيب.

دلالة صيغة فعّل في قولِه ﴿كَذَّبَ﴾:

تكذيب الرّسل يجرُّ إلى المبالغة فيه

جاء الفعل بصيغة التّضعيف لأجل تعديتِه إلى المفعول بنفسِه، وفي الصّيغة إشعارٌ بكثرة تكذيبِهم لرسولِهم ومبالغتِهم فيه،

(1) المراغيّ، تفسير المراغي: 14/40، والسّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 434.

فكذَّبوا رسولَهم وجميعَ الآياتِ التي جاء بها، ودلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾.

نكتةُ ذكر (التَّكذيب) دون (الكفر):

اختيار اللّفظ المناسب لسياقه، من بلاغة القرآن

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، عبّر بالتّكذيب دون الكفر؛ لأنَّ سياق القصص في هذه السورة يتكلم في أحوال قوم الرّسل مع رسلِهم وكيف كانت مقابلتهم لدعوة رسلِهم، فأخبر هنا عن تكذيبِهم لما جاء به صالحٌ عليه السلام، وفيه إشعارٌ بأنَّ تكذيب الرّسل مبدأُ الكفرِ والضّلال ومآله العقاب.

دلالة مجيء الخبر على مقتضى الظّاهر:

تقديم الفاعل للاهتمام به، من فصيح السّياق

جاء الخبر على مقتضى الظّاهر بتقديم الفاعل على المفعول، فلم يقل (كذّبَ المرسلين أصحابُ الحجرِ)، والسَّببُ هو أنَّه لمّا كان السّياقُ في بيانِ حالِ المكذِّبين وما وقع لهم بتكذيبهم، قُدِّمَ الفاعلُ للاهتمامِ به[1].

نكتةُ اختيار لفظ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾:

قوّة المكذّبين ومنعتُهم، لا تدفعُ عقابَ الله عنهم

لمّا كان لفظ الأصحاب يدلُّ على مقارنة الشّيء وملازمتِه أفاد التّعبير بـ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ﴾ ملازمة القومِ للحجرِ، فجُعلوا لِسُكناهم فيها ومقامِهم بها أصحابَها[2]، إشعارًا باشتهارِهم بالحجر حتّى صاروا يُنسبون له، وبأنَّهم ذوو قوَّةٍ ومنعةٍ.

معنى الإضافةِ في قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ﴾:

شؤم المكان الّذي شهد الكفر والعقاب، يبقى على مدى الدّهر

الإضافة هنا على معنى اللّام، بمعنى اختصاصِهم بالحجر الّذي صاروا يُنسبون له، لطولِ مقامِهم فيه وملازمتهم له، فاشتهروا به لذلك حتّى صارَ كالعلمِ عليهم.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/80.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/126.

وجه تسميَة القوم هنا بأصحابِ الحجرِ دونَ (ثمود):

لـكـلّ شيء نصيب في الحالة والـوصـف من اسمه

لّما كان الحجرُ هو المكان الذي أحيطت به الحجارة[1]، وكان السّياق في بيان أنَّ قوّتهم وبناءهم البيوت في الجبال لم تمنعهم من عذاب اللّه عُبِّر عن قوم ثمود بأصحابِ الحجر، لدلالة الحجر على الحجارة التي تحيط بالمكان إشعارًا باحترازِهم وتحوّطهم وقوّتهم، ففيه إشارةٌ أنَّ قوّتهم لم تمنعهم من عذاب اللّه.

دلالة (أل) في قولِه ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

تكذيب المرسلين لـؤم وهـوان إلى يوم الدّين

الظّاهر أنَّ (أل) للاستغراق بمعنى كذّب أصحابُ الحجر كلَّ المرسلين، ويحتمل أن تكون للعهد ليكون المرادُ صالحًا ومن آمن معه من المؤمنين[2].

بلاغة التّعبير في جمعِ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

تكذيب رسولٍ، هـو تـكـذيـب لجميعِ الرّسل وما حملوا

الظّاهر أن يكون ذكر ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ بصيغة الجمع بطريق المجاز في الإيقاع، حيث أوقعَ على جميعِ الرّسل ما أوقعَ على الواحدِ، لأنَّ الكفرة من قومِ صالحٍ لم يواجهوا جميعَ الرّسل حقيقةً، ونكتة مجيء اللفظ بصيغة الجمعِ؛ هو أنَّه لّما كان جميع الرّسل قد اتّفقت كلمتُهم على التّوحيد والمنع منَ الشّرك والدّعوة إلى الحقِّ والأصول التي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار كان تكذيب الواحدِ من الرّسل بمثابة تكذيب الجميع، فجعل اتّحادَ المكذَّب فيه بمنزلة اتّحاد المكذِّب، ففيه وعيدٌ من تكذيب أيِّ رسولٍ منَ المرسلين وتهويلٌ منه، وهذهِ العبارةُ أشنعُ على المكذّبين، لأنَّ تكذيب كلِّ المرسلين أقبح من تكذيب الواحدِ منهم، ويستحقُّ المكذِّبُ به العذابَ الأشدَّ، والتّعبير بصيغة الجمعِ هنا مثل قولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ

(1) الراغب، المفردات، (حجر).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/210.

ﵟٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥ﵞ [الشعراء: 105][1]، فإذا كان تكذيب صالحٍ عليه السلام تكذيبًا لكلِّ الرّسل فكيف بمَن يكذِّبُ خاتمَ الرّسل والنّبيّين سيِّدنا محمَّدًا ﷺ؟!
ويحتمل أن يكون ذكر ﵟٱلۡمُرۡسَلِينَﵞ بصيغة الجمع من باب الكناية؛ لأنَّ الرّسول مَن أتى بوحيٍ منَ اللّه وجاء بمعجزةٍ فيلزم منه أنَّ مَن لم يصدِّق هذا المعنى الذي جاء به الرّسول وردَّه أن يكون قد أعمَّ التّكذيبَ لجميعِ الرّسُلِ[2]، وإذا كان المراد منَ ﵟٱلۡمُرۡسَلِينَﵞ صالحًا ومَن آمن معه فيكون الإطلاق على التّغليب[3]، تكريمًا لأتباعِ المرسَل وتشريفًا لهم.

نكتةُ إيثارِ الجمع بصيغة ﵟٱلۡمُرۡسَلِينَﵞ، دون الرّسل:

تكذيبُ المرسَلِ تكذيبٌ للمرسِل، وهو الله تعالى

لمّا كانت صيغة ﵟٱلۡمُرۡسَلِينَﵞ جمعًا لاسم المفعول (المرسَل)، وأفاد بصيغتِه أنَّه مبلّغٌ عن مَن أرسلَه وهو اللّه تعالى، دلَّ على أنَّ تكذيب المرسَل تكذيبٌ للمرسِلِ سبحانه وتعالى.

بلاغة التّعريض في الآية الكريمة:

مآل مكذّبي رسلِ الله واحدٌ، في العقابِ والعذاب

قولُه تعالى: ﵟوَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَﵞ، في الكلام تعريضٌ بالمكذّبين من قريشٍ ومن يأتي بعدَهم في أنَّهم إن كذَّبوا رسول اللّه محمَّدًا ﷺ فهم بمنزلة من كذَب جميع المرسلين، وأنَّ مآلَهم سيكونُ مثلَ مآلِ مَن كذَّب الرّسل مِن قبلُ، ففي التّعريض وعيد شديد.

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/459، والزمخشري، الكشاف: 2/586، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/216، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/191.
(2) الطيبي، حاشية على الكشاف: 9/56، وابن التّمجيد، حاشية على البيضاوي: 11/191.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 5/537، والآلوسي، روح المعاني: 7/318.